من تاريخ الطب الاسلامى

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

— ٣ —

لقد كان بدء نقل الكتب العلمية إلى اللغة العربية كما ذكرنا آنفاً — بعد استقرار الحكم العربى ، وأن أكثر المترجمين كانوا من أمم غير عربية ، وأحياناً من غير المسلمين كالسريان والعبريين ومن الإيرانيين المسلمين منهم ، والنصارى واليهود والمجوس ، غير أن النهضة العلمية الحقيقية بدأت فى العصر العباسى ، وكان للايرانيين حينذاك نفوذ كبير وشأن فى الدولة عظيم .

فى هذا العصر ترجمت كتب علمية على درجة كبيرة من الأهمية ، ولا سيما فى زمن خلافة المأمون . وكانت أمه وزوجته إيرانيتين ، وكان نفوذ الإيرانيين قد بلغ فى عهده غايته ، فى هذا العصر حصل العرب بطريق الفتح ، أو بإيفاد بعوث خاصة إلى بلاد الامبراطورية البيزنطية ، أو بالشراء أو المبادلة على كثير من الكتب اليونانية النفيسة ، أو ترجمتها السريانية ، فجمعوها فى مكتبة الخليفة المسماة (بيت الحكمة) ، وقام بتعريبها سورة المترجمين . ويروى بعض المؤرخين المسلمين عن سبب اهتمام المأمون بالعلوم الفلسفية وغيرها قصة ملخصها أن المأمون رأى أرسطو فى منامه ومر من كلامه ، فرغب فى قراءة مؤلفاته . لذلك أحضر كتبه وأمر بترجمتها إلى العربية .

ويروى ابن النديم بهذا الشأن هذه الرواية :

(إن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون ، مشرباً حمرة ، واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين ، حسن الشمائل ، جالس على سريره . قال المأمون : وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة ، فقلت من أنت؟ قال: أنا أرسطاليس . فسررت به وقلت : أيها الحكيم ، أسألك؟ قال سل . قلت ما الحسن؟ قال ماحسن فى العقل . قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن فى الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور . قلت ثم ماذا ؟ قال ثم لا ثم . وفى رواية أخرى قلت زدنى ، قال من نصحك فى الذهب ، فليكن عندك كالذهب . وعليك بالتوحيد . وهو يعتقد أن هذا المقام كان من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب ، غير أننا نرى كما سبق القول فى ذلك ، أن ظهور الفلسفة والعلوم فى الإسلام كان أمراً طبيعياً وكان من مستلزمات الحضارة ، وأن اتصال المسلمين بالأمم المتحضرة كان يوجب عليهم الاكتساب من علومهم ومعارفهم.

وكما أن اللغة اللاتينية كانت لغة العلم فى جميع البلاد الأوربية طوال القرون الوسطى ، أصبحت اللغة العربية بالتدريج ، لغة العلم والعلماء بين المسلمين . وكان العلماء والمسلمون من كل قوم ولغة يؤلفون مؤلفاتهم بها ليستفيد منها جميع المسلمين . وبتوالى الزمن أصبحت المصطلحات العلمية التى وضعت فى اللغة العربية ، كالنقد الرائج يتلقاها الجميع بأحسن قبول .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن للغة العربية خصائص ومزايا تجعلها صالحة لوضع المصطلحات الجديدة فهى من أغنى لغات العالم ، ففى اللغة العربية مثلا وزن (فُعال) وأكثر الكلمات التى على هذا الوزن ، مثل صداع وزكام وجذام ودوار وبحار (دوار البحر) وخمار وغيرها تدل على الأمراض ، وتلك مزية قلما تتوفر فى لغة أخرى ، إلى غير ذلك من مزايا لا تعد ولا تحصر .

وقد وضع العرب فى بعض الأحيان بمهارة متناهية ، كلمات عربية تؤدى معانى الكلمات اليونانية بدقة مثل كلمة تشخيص مقابل كلمة ديا جنوسيس Diagnosis ، وتقدمة المعرفة مقابل پروجنوسيس Prognosis كما أنهم كانوا فى أحيان أخرى يأخذون نفس الكلمات اليونانية بصورتها الأصلية مع تحريف بسيط يناسب النطق العربى مثل كلمات (ذوسنطاريا) و (إيلاوس) و (ذيابيتوس) .

وهذه الكتب المترجمة إلى العربية هى التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرون الوسطى ، وترجمت معها المؤلفات الطبية لمحمد بن زكريا الرازى ، وعلى بن العباس المجوسى الأهوازى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبى القاسم الزهراوى وأضرابهم ، ودرست فى مدارسهم وبعد ذلك بزمن طويل أى فى العصور الحديثة عرف الأوربيون المتون اليونانية الأصلية لتلك التراجم ؛ وبعد العثور على المتون الأصلية ، فقدت التراجم العربية رونقها السابق .

يذكر ابن النديم فى الفهرست [1] أسماء ما يقارب السبعين مترجماً من هؤلاء المترجمين مع ذكر الكتب التى قاموا بتعريبها واللغة المترجم عنها ، كما أنه يذكر ضمن بيان ترجمة الحكماء والأطباء اليونانيين أسماء مؤلفاتهم التى ترجمت إلى العربية مع ذكر أسماء الذين قاموا بترجمتها ، أو الذين قاموا بإصلاح الترجمة بعد مراجعتها على الأصل اليونانى أو السريانى ، غير أن أكثر هذه الكتب قد ضاع مع الأسف على أثر الحوادث المختلفة . وها نحن أولاء نذكر هنا كنموذج أسماء بعض كتب بقراط وجالينوس المهمة المترجمة إلى العربية مع ذكر أسماء الذين قاموا بترجمتها [2] .

١ — كتاب عهد بقراط تفسير جالينوس : ترجمه إلى السريانية حنين بن إسحق ثم نقله إلى العربية حبيش وعيسى بن يحيى

٢ — كتاب الفصول لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه حنين بن إسحق فى سبع مقالات إلى العربية .

٣ — كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه حنين بن إسحق إلى العربية .

٤ — كتاب الأمراض الحادة لأبقراط تفسير جالينوس : ترجم عيسى بن يحيى ثلاثاً من مقالاته الخمس إلى العربية .

٥ — كتاب أبيذيما لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه عيسى بن يحيى إلى العربية :

٦ — كتاب الأخلاط لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه عيسى بن يحيى إلى العربية .

٧ — كتاب الماء والهواء لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه حنين بن إسحق إلى العربية .

٨ — كتاب طبيعة الإنسان لأبقراط تفسير جالينوس : ترجمه حنين بن إسحق وعيسى بن يحيى إلى العربية .

ويلاحظ أن معظم كتب جالينوس نقلت إلى العربية بواسطة حنين بن إسحق أو تلاميذه ، مثل عيسى بن يحيى ، وحبيش .

كان حنين بن إسحق من أشهر علماء عصره وأكثرهم إنتاجاً ، فإن سبعة أعشار مؤلفات بقراط قد ترجمت بواسطته ، والقسم الباقى منها ، وكذلك الشطر الأكبر من مؤلفات جالينوس قام بترجمته هو أو بعض تلاميذه .

وكان حنين ينقل على الأغلب الكتب اليونانية إلى السريانية ثم يقوم تلاميذه بنقلها من السريانية إلى العربية ، ثم يراجعها هو بنفسه ويصححها . وقد قام هو بنقل بعض الكتب من اليونانية إلى العربية مباشرة ، ويتضح من مجموعة ترجماته أنه كان متضلعاً للغات فى الثلاث: اليونانية والسريانية والعربية تضلعاً تاماً

وقد قام حنين بن إسحق وابنه إسحق بن حنين وتلاميذه بترجمة بعض مؤلفات جالينوس بالكيفية التى ذكرناها فى ترجمة كتب بقراط منها كتاب (الصناعة) وكتاب عن (النبض) وكتاب فى (العلاج) و(المقالات الخمس فى التشريح) وكتاب (الاسطقصات) وكتاب (المزاج) وكتاب (القوى الطبيعية) وكتاب (العلل والأعراض) وكتاب عن أمراض (الأعضاء الباطنية) وكتاب كبير عن (النبض) وكتاب عن (الحميات) وكتاب عن (بحران المرض) وكتاب عن (أيام البحران) وكتاب فى (حفظ الصحة) وكتاب (التشريح الكبير) وكتاب عن (اختلاف التشريح) وكتاب (تشريح الحيوان الميت) وكتاب (تشريح الحيوان الحى) وكتاب عن (علم بقراط فى التشريح) وكتاب عن (علم أرسطو فى التشريح) وكتاب (تشريح الرحم) وكتاب (حركات الصدر والرئة) وكتاب (علم النفس) وكتاب (الصوت) وكتاب (حركات العضل) وكتاب (الحاجة إلى النبض) وكتاب (الحاجة إلى التنفس) وكتاب (العادات) وكتاب (آراء بقراط وأفلاطون) وكتاب (فوائد الأعضاء) وكتاب (سوء المزاج) وكتاب (الأدوية المفردة) وكتاب (الأورام) وكتاب عن (المولود فى الشهر السابع) وكتاب عن (سوء التنفس) وكتاب (تقدمة المعرفة) وكتاب عن (الفصد) وكتاب عن صرع الأطفال وكتاب عن الأغذية وكتاب (الكيموسل) وكتاب معالجة الأمراض الحادة وكتاب تركيب الأدوية وكتاب فى أن الطبيب الفاضل (فيلسوف) وكتاب عن الكتب المنسوبة إلى بقراط ، وبيان الكتب المقطوع بصحة نسبتها إليه ، وكتاب فى الترغيب فى درس الطب ، وكتاب عن اختبار الطبيب ، وكتاب

(١) صفحة ٣٤٠ — ٣٤٢ طبع مصر
(٢) الفهرست صفحة ٤٠١ طبع مصر

فى أن قوة النفس تابعة لمزاج البدن ، وكتب أخرى ترجت جميعها بهمة حنين بن اسحق وتلاميذه مثل حبيش بن الحسن الأعشم وعيسى بن يحيى واصطفن بن بسيلى وابراهيم بن الصلت ونجله اسحق بن حنين وآخرين .

وقد نقلت مؤلفات أخرى لمشاهير الأطباء اليونانيين إلى العربية مثل كتاب (تشريح الأحشاء) وكتاب (الأدوية المستعملة) لأوريباسيوس Oribase وكتب عدة من مؤلفات روفس (Rufus d'Ephèse) منها كتاب تسمية أعضاء الإنسان وكتاب اليرقان ، وكتاب أمراض المفاصل ، وكتاب عن أمراض الحنجرة والبلعوم والذبحة ، وكتاب عن النساء العواقر ، ووصايا صحية ، وكتاب الصرع ، وكتاب حمى الربع وكتاب ذات الجنب وذات الرئة وكتاب عن القيء وكتاب عن الدوار القاتل وكتاب عن أمراض الكلية والمثانة وكتاب فى الجراحات وكتاب عن صحة الشيوخ وكتاب عن التوليد وكتاب اختباس الطمث وكتاب الأمراض المزمنة على رأى (بقراط) وكتب أخرى منها كتاب عن (أمراض العيون وعلاجها) وكتاب عن الدودة الوحيدة من مؤلفات الطبيب الشهير اسكندروس طرالتيوس Alexandre de Tralles وبعض كتب بولس الأجانطى Paule d'Egine منها كتاب أمراض النساء وكتاب (الأدوية المفردة) لديسقوريدس Dioscoride وهو من أعاظم علماء الأدوية والعقاقير وقد قام برحلات كثيرة للبحث عن خواص الأعشاب والنباتات إلى كثير من البلاد والجزائر النائية .

ولحنين بن اسحق العبادى المترجم العظيم المذكور المتوفى حسب رواية ابن النديم فى صفر من العام الستين بعد المائتين من الهجرة ، غير كل هذه الكتب المترجمة مؤلفات هامة كثيرة منها كتب فى الطب مثل كتابه فى الأطعمة وكتاب فى تقسيم علل أمراض العين وعلاجها وكتاب عن الأسنان واللثة وكتاب عن أوجاع المعدة وعلاجها وكتاب عن المولود فى الشهر الثامن .

ومن كبار المترجمين الذين يدين الشرق لخدماتهم العلمية قسطا بن لوقا البعلبكى ويقول ابن النديم فى ترجمته (كان يجب أن يقدم على حنين لفضله ونبله وتقدمه فى صناعة الطب ، ولكن بعض الإخوان سأل أن يقدم حنين عليه وكلا الرجلين فاضل) .

إن معظم ما قام بترجمته قسطا بن لوقا فى الهندسة والأعداد والموسيقى ، غير أن له كذلك تراجم جيدة جداً فى الفلسفة والطب منها كتاب (الدم) وكتاب (البلغم) وكتاب (الصفراء) وكتاب (السوداء) وكتاب (علة الموت الفجاءة) وكتاب (أيام البحران) وكتاب (الفصد) .

وينتسب عدد كبير من كبار مترجمى اللغة العربية لمدينة حران . وكانت تسمى هلنو پوليس (Helleno polis) لجهم العظيم للمعارف اليونانية وعرف هؤلاء بالصابئين . وليس هنا مجال التحدث عن أصلهم وديانتهم .

وأشهر علماء حران ومترجميها ثابت بن قرة ونجله أبو سعيد سنان بن ثابت ونجل هذا الأخير أبو الحسن وآخرون من أنجاله وأحفاده وقد اشتهروا جميعاً بالعلم وحسن الترجمة .

ومن أعاظم علماء القرن الثالث الهجرى أبو يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى المعروف بفيلسوف العرب ، وكان متبحراً فى علوم القدماء ، وله مقالات ومؤلفات نفيسة فى كل فرع من فروع العلوم المختلفة ومنها الطب . وينسب له ابن النديم فى سياق ذكر مؤلفاته فى العلوم والفنون المختلفة الكتب الآتى ذكرها فى الطب :

رسالة فى (طب بقراط) ورسالة فى (الأطعمة والأدوية القاتلة) ورسالة فى (الأبخرة التى تنقى الهواء وتزيل منه آثار والأوبئة) ورسالة عن (الأدوية التى تزيل آثار الروائح المؤذية) ورسالة فى (كيفية الأدوية المسهلة وجذب الاخلاط) ورسالة فى (حفظ الصحة) ورسالة فى (أسباب بحران الأمراض الحادة) ورسالة عن (الأعضاء الرئيسية فى الإنسان) ورسالة عن (كيفية تركيب الدماغ) ورسالة عن (علة الجذام والشفاء منه) ورسالة فى (عضة الكلب الكلب) ورسالة فى (الأعراض التى تظهر بسبب البلغم) ورسالة عن (علة موت الفجأة) ورسالة عن (أوجاع المعدة والنقرس) ورسالة عن (الطحال) ورسالة عن (فساد جسد الحيوان) ورسالة عن (مقدار فائدة صناعة الطب) ورسالة عن (الطعام) وأخرى عن (فساد الطعام) .

والآراء جد مختلفة فى قيمة هذه التراجم ومبلغ جودتها أو رداءتها .

يقول پونيون Pognon (وكان قنصلا لفرنسا بحلب وقد طبع عام ١٩٠٣ المتن السريانى لأحد مؤلفات بقراط مع ترجمته

فى ليبزيك) أن التراجم السريانية غامضة ومعقدة وهى تراجم لفظية لدرجة أن معانى بعض الجمل لا تفهم ، وأن تركيب الجمل والعبارات فيها مشوش ، ومفردات اللغة مستعملة لغير ما وضعت له من المعانى . وسبب ذلك أن المترجمين كانوا يجتهدون فى أن تكون ترجمتهم صادقة ومطابقة للأصل على قدر الإمكان ، ولذلك كانوا عند ما يواجهون جملة صعبة يكتفون بوضع الترجمة اللفظية للكلمات اليونانية مكان الكلمات الأصلية دون أن يفكروا فى معنى العبارة كلها ، وإن جهلوا معنى الكلمة اليونانية اكتفوا بكتابتها عيناً بالحروف السريانية ؛ لذلك كله ترى فى تلك التراجم كثيراً من العبارات غير الصحيحة والجمل غير المفهومة .

إن هذا العيب يصدق إلى حدّ ما على بعض هذه التراجم ولاسيما الكتب التى ترجمت فى مبدأ تعرف المسلمين على فلسفة اليونان وعلومهم ، فقد كان لهذه التراجم نواقص كثيرة من وجهة فن الترجمة ، ولذلك كثيراً ما نرى ابن النديم يقول فى الفهرست (قام بترجمة الكتاب فلان وأصلحه فلان) .

وكان من أسباب نقص هذه التراجم نقص اللغة السريانية نفسها وضيق أفقها بالنسبة للغة اليونانية التى تعتبر من أغنى لغات العالم وأوسعها دائرة ، وقد كانت لغة الخطاب والتأليف قروناً عدة ألف بها أمثال هوميروس واشيل وتوسيد يد وديموستن وبقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم .

ومن أسباب نقص هذه التراجم غير ما ذكرنا عدم وجود مصطلحات علمية وفلسفية لدى السريان أو عدم معرفة مترجمى الحقبة الأولى منهم بتلك المصطلحات .

ومن البديهى أنه عند ما ترجمت هذه الكتب المترجمة مع ما فيها من العيوب والنقائص التى يشير إليها يونون إلى اللغة العربية ازدادت عن أصلها بُعداً وأضيفت إلى غموض الترجمة وإبهامها الشىء الكثير وأصبحت استفادة الطب منها من أصعب المشكلات .

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى ترجمة حياته التى أملاها على تلميذه أبى عبيد عبد الواحد بن محمد الفقيه الجرجانى(١)

(وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت أفهم ما فيه والتبس على غرضه واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا أعرف المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت هذا الكتاب لا سبيل إلى فهمه ، فإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى سوق الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه فعرضه على فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعكه وصاحبه محتاج إلى ثمنه فاشتريته بثلاثة دراهم فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ورجعت إلى بيتى وأسرعت إلى قراءته فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان صار لى محفوظاً على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت ذلك اليوم بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى)

ويفهم من هذا أن الترجمة كانت فى بعض الأحيان ضعيفة ورديئة لدرجة أن قريحة كقريحة ابن سينا كانت تحتار فى تفهم معناه وتيأس من ذلك .

فإن شئنا أن لا نعدو الحق والإنصاف فى حكمنا يجدر بنا أن نذكر أن نشر العلوم اليونانية وتعميمها ووضعها فى متناول طلبة العلم وتقريبها لفهمهم كان بفضل الطبقة الثانية من المترجمين الذين كانوا قد فهموا تلك العلوم بأنفسهم فهماً جيداً . وكانت ترجمتهم واضحة يفهمها طالب العلم بسهولة ، وبفضل هؤلاء وببركة دراساتهم وتحقيقاتهم العلمية وتصحيحهم للتراجم السابقة حلت المشكلات العويصة .

أما قول بعض النقاد أن التراجم لا تفهم دون مراجعة الأصل فمبالغ فيه .

يعتقد لوكلرك Leclere أن النقل المباشر من اليونانية إلى العربية حسن بصورة عامة ، والكتب المترجمة بهذه الطريقة مترجمة بذكاء عظيم وقريحة وقادة وذوق سليم ، غير أن النقل من العربية إلى اللاتينية ، وكان يقوم به مترجمون غير ملمين باللغات ، كان ناقصاً ومشوهاً ، فالذين يحكمون على الترجمات العربية عن طريق ترجماتها اللاتينية قد سلكوا طريقاً خطأ . ويذكر لوكلرك مثالا حياً لهذا فيقول إن بعض أقسام القانون لابن سينا لا يفهم جيدا ، أو قل لا يفهم أبداً باللاتينية ؛ والسبب هو أن المترجم لم يكن يعرف العبارة العربية فى الأصل ، أو لم يكن يتقن اللاتينية التى ترجم إليها .

(يتبع)

قاسم غنى

(١) عن صورة لنسخة خطية من ترجمة ابن سينا ومؤلفاته لابن عبيد الجرجاني محفوظ فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٧٠ ر ل